التحدّيات الفكريّة للمسلم المعاصر في القرن القادم»

ورقة

«مقدّمة إلى ندوة دراسات المستقبل الإسلاميّ»

أ. د. طه جابر العلواني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإنّ علم أو فنّ دراسة المستقبل[1] أحد أهم مظاهر التقدم العلميّ في نطاق المعارف أو العلوم الاجتماعيّة المعاصرة.

كما أنّه من أهم مظاهر القدرة الفكريّة لدى المثقف، فلم يعد استيعاب أحداث الماضي، وتفسير وقائعه، والربط بينه وبين الواقع كافيًا لإعطاء الفكر صفة الخصوبة والتميز والإثمار، أو لمنح المفكّر صفة العالميّة والإتقان، بل لابد من الجمع بين استيعاب الماضي، واستقراء الحاضر للتنبؤ بالمستقبل.

والتنبؤ بالمستقبل –هنا– ليس نوعًا من الكهانة أو التنجيم ؛ بل هو استفادة بمعطيات العلم والفكر والثقافة، ومتغيرات الحاضر، وعبر ودروس الماضي لاستشراف المستقبل.

ولعلّ التأصيل لهذا النوع من الجهد الفكريّ ينبع من أنّه تدبّر مأمور به، وتأمُّل مشروع، والقرآن العظيم أحال على المستقبل في آيات كثيرة منها ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت:53)، ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (التوبة:105)، ﴿**آلم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ (الروم:1–5).

---

[1] حامد ربيع. **مستقبل الإسلام السياسي**. –ص 5.

ووردت آيات ظهور الإسلام على الدين كلّه في مواضع ثلاثة من القرآن الكريم هي: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** (التوبة:32)، **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** (الصف:8)، إلى غير ذلك من آيات كريمات يطول بنا المقام باستقرائها.

كما وردت بذلك جملة كبيرة من الأحاديث الصحيحة منها : «**كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني**».

وقد عرف تراثنا محاولات لتأسيس «**علم المستقبليّات**» أو فنّها، نجدها في الدراسات التي اندرجت في «**التدبير**» أو عرفت به، وإن لم تتبلور في علم متميز بذاته وموضوعه ومنهجه وغاياته ومبادئه، شأنه شأن كثير من تراثنا الإسلاميّ في العلوم الاجتماعيّة.

ومن هنا يستمد العلم أصالته وأهميّته في الوقت ذاته، ويصبح بناؤه وإيجاد مناهجه ومبادئه وقواعده جزءًا من المهام الأساسيّة الملقاة على عواتق المفكّرين المسلمين اليوم. إنّه ليس تنبؤًا أو تصورًا؛ بل هو معالجة مسبقة للمستقبل في ضوء معلومات كاملة ودقيقة عن الماضي لأحداث لا يستطيع أن يقوم بها إلا مهرة المتدبّرين وحذّاق المتوسمين من فرق الباحثين. ولعلّ هذه الندوة تمثّل إن شاء الله تعالى هذا الفريق.

عقبات أمام تحديد التحديّات الفكريّة المستقبليّة:

هناك جملة من العقبات أو المشكلات البحثيّة تعترض سبيل تحديد التحديّات الفكريّة المستقبليّة على وجه الدقّة، منها :

1) إنّه بالرغم من كل مَا قدمناه حول علم «**التدبّر**» أو «**الاستشراف المستقبليّ**» من آيات وأحاديث، وبعض تلك المحاولات التراثيّة إلّا أنّ هذا النوع من الدراسات لايزال عندنا مفقودًا بوصفه علمًا بشروطه، وما هو متوافر الآن هو في مرحلة التأملات وعند الآخرين هو لايزال في بدايته، وهم يحاولون أن يرسوا قواعده، ولكن هذه المحاولات لايزال الحكم عليها سابقًا لأوانه.

2) إنّ أهم الشروط والدعائم التي يفتقر هذا النوع من الدراسات إليه، المعلومات الدقيقة ومناهج تحليل وافية مناسبة لها، ومستويات تحليل خاصّة بتلك الموضوعات التي يُراد استشراف المستقبل الفكريّ لها.

وهذه المعلومات لا تتوافر في العالم الإسلاميّ، والقليل المتوافر منها مأخوذ عن المصادر الغربيّة، وهي مصادر مظنونة متهمة عندما تتناول الموضوعات الإسلاميّة أو مَا يتعلّق بالمسلمين، لافتقارها إلى الفهم الدقيق لسائر الأبعاد ذات العلاقة بأيّة قضيّة إسلاميّة خارج إطار القضايا الكميّة، وبخاصّة إذا كانت من قضايا الفكر والثقافة أو المنهج والعقيدة والشريعة ونحوها مما يتعلّق بالأمور الكميّة، ولا يمكن إخضاعه لمناهج الإحصاء، ومستويات التحليل القائمة عليها.

والمكتبة الإسلاميّة المعاصرة وإن ازدحمت بآلاف الكتب ذات العلاقة القريبّة أو البعيدة في موضوعنا هذا، بيد أنّها لا تعني أنّ الوعي بقضايا الفكر الإسلاميّ وإدراك الأزمة الفكريّة للأمّة قد تكاملا. صحيح أنّ المكتبات تعج بما كُتب عن النهضة والتراجع، واليقظة والغفلة، والتقدم والتخلف، والحداثة والمعاصرة والتراث، والعقلانيّة والحرفيّة والعلم والتربيّة، والثقافة والهويّة، والتاريخ والتنمية والوحدة والعقل المسلم أو العربيّ والتجديد والاجتهاد والسلفيّة... وغيرها، بيد أنّ ذلك -كلّه- لا يقدّم لعمليّات دراسة المستقبل الكثير، بما في ذلك الكتابات التي حملت عناوين صريحة في هذا المجال وشحنت بالعواطف والمشاعر الطيبة؛ رغبة في إنماء مشاعر الثقة في المستقبل وتشجيع الأمّة على الأمل والعمل، وكذلك الدراسات التي وظفت بعض النصوص المشار إليها سابقًا للتنبيه إلى مستقبل مشرق نطقت به تلك النصوص، ونحن على يقين بصدق كل مَا أخبر الله -تعالى- ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولكن تحقيق ذلك يتم وفقًا لسنن الله -تعالى- والشروط التي وضعها جل شأنه وفي الوقت الذي جرى به قضاؤه، لا خرقًا لتلك السنن والقوانين ولا تجاوزًا لها مع الإيمان بقدرة الله تعالى التامّة المطلقة على كل شيء.

3) اختلاط المفاهيم الإسلاميّة بغيرها، والغبش الذي لحق كثيرًا من تلك المفاهيم الإسلاميّة، واختلاف الإسلاميّين حول كثير من حقائقها يجعل عمليّة إدراك البعد الفكريّ الإسلاميّ على حقيقته في حاضره أمرًا في غاية الصعوبة؛ فكيف بعمليّة استشراف المستقبل؟!

4) صعوبة الفصل بين قضايا الفكر الإسلاميّ وقضايا العقيدة وقضايا الشريعة وقضايا الواقع تاريخيًّا أو معاصرًا، خاصّة خارج الإطار المدرسيّ أو الأكاديميّ؛ ففي مجال التعليم يمكن

الفصل بين هذه الأمور كلّها ودراسة كل منها في معزل عن الآخر وذلك لخدمة قضيّة الفهم والتعليم لبعد معين محدّد من الأبعاد، أمّا خارج هذا الإطار فيتعذر الفصل، حيث إنّ طبيعة الإسلام تمثل حقيقة كليّة واحدة يتصل فيها الفكر والعقيدة والشريعة والعلم والعمل والواقع المثاليّ، كما يتصل فيها الماضي بالحاضر والمستقبل، والفرد بالجماعة، والدولة بالأمّة، ولكن «**الميسور لا يسقط بالمعسور**»، والمستقبل لهذا الدين ولو بعد حين.

محدّدات الفكر الإسلاميّ:

لكي نستشرف معالم الفكر الإسلاميّ المستقبليّ والتحديّات التي تنتظره، أو التي عليه أن يواجهها، لابد لنا من ملاحظة ماضي الفكر الإسلاميّ والتحديّات التي واجهته وحاضره كذلك، لننطلق من النظر فيهما باتجاه استشراف مستقبله، ولكي لا نضيع في لُجج ذلك الفكر ونُبتلَعَ في دواماته الكثيرة، فقد وضعنا لأنفسنا إطارًا نتحرك في حدوده، وهذا الإطار يقوم على دعامتين:

الأولى: الإيجاز الشديد دون إخلال بالهدف في عرض أبرز قضايا الفكر الإسلاميّ في الماضي والحاضر للتنبيه والتذكير.

الثانية: ملاحظة محدّدات أساسيّة تساعد على لملمة أطراف الموضوع بالشكل الذي يحقق الهدف الأساسيّ لهذه الورقة.

أمّا الإيجاز فهو أمر نرجو الله -تعالى- أن يُعين عليه.

وأمّا المحدّدات فهي ثلاثة:

1) العقيدة والفكرة الكليّة التي جاء بها الإسلام عن الكون والإنسان والحياة، والتي قادت خطوات الإنسان المسلم في نشاطه كلّه وانبثقت عنها حضارته.

2) القضايا والتحديّات والمشكلات التي ارتبطت بالنشاط العمرانيّ الحضاريّ الإسلاميّ، وطرق وأساليب معالجة الإنسان المسلم لها انطلاقًا من قاعدته الفكريّة وعقيدته وعقليّته الإسلاميّة.

3) المعارف المتنوّعة والخبرات المختلفة التي قدّمها مفكّرو الإسلام وعلماؤه لمعالجة مَا واجههم انطلاقًا من العقيدة، وما انعكست عليه من الأنشطة العمرانيّة والحضاريّة التي يُعالج المفكّر بها المشكلات التي تواجهه في ميدان نشاطه.

ومما يرتبط بهذه المحدّدات معالم فترات الفكر الإسلاميّ الكبرى، أو المحطات الهامّة التي لابد من الوقوف عندها والتنبيه إليها.

ويمكن تناولها من جانبين:

1) جانب المصادر والمنطلقات التي قام الفكر الإسلاميّ عليها.

2) وجانب الدول والقيادات التي تولت قيادة الأمّة منذ قيامها.

فعلى الجانب الأول يمكن تقسيم تاريخ الأمّة إلى مرحلتين كبيرتين:

الأولى: النص.

الثانية: مرحلة مَا بعد النص؛ وهي تشمل مرحلتي الاجتهاد والتقليد.

أمّا مرحلة النص؛ فهي مرحلة بدأت ببدء نزول الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– وانتهت بوفاته –صلى الله عليه وآله وسلّم– حيث كملت مصادر الفكر والفقه الإسلاميّ، وتمت قواعد نظريّاته ومنطلقاته.

وكان دور الفكر فيها دور النظر والفهم والاستدلال والتلقي وتنزيل النصوص على الواقع وملاحظة النتائج للاطمئنان على صحة التطبيق والتنزيل. ولم تكن الفترة بحاجة إلى تحديد مصطلحات منهجيّة وضوابط مفاهيميّة خارج ذلك الإطار، فقد كان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– يقود بنفسه حركة التطبيق والأسوة والقدوة، يهديه القرآن المجيد ويُسدد خطاه، فيستدرك عليه عند الحاجة ويُصحح إجراءاته، ولكن معالم المنهجيّة الإسلاميّة كانت ظاهرة واضحة في ذلك كلّه، لم تخف على العلماء بعد تلك الفترة حين برزت الحاجة للضوابط والقواعد المنهجيّة.

ويمكن للباحث أن يُلخّص المعالم الكبرى لتلك الفترة بما يلي:

1) وحدة الدين ؛ فالإسلام قد ضم سائر القواعد الأساسيّة التي جاء الدين بها، بوصفه رسالة الخالق إلى الخلق، وإذا كانت تلك الرسالات السابقة قد لاحظت خصوصيّات قوميّة أو إقليميّة أو زمانيّة أو مكانيّة، فإنّ الرسالة الخاتمة قد برأت من ذلك كلّه في سائر قواعدها وأركانها الأساسيّة، فأصبح الإسلام التعبير الكامل والأخير عن الدين كلّه ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ (آل عمران:19)، ولم تعد هناك حاجة إلى نبي بعد محمد –صلى الله عليه وآله وسلّم– ﴿**وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ (الأحزاب:40)، ولم يعد الدين بحاجة إلى أيّة

إضافة أو زيادة في قواعده ومصادره وأساسيّاته ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة:3)**.** وبذلك تحقق كمال النعمة وحماية البشر من الخرافة أو التضليل أو الشعوذة أو استغلال شيء من الدين، فقد وضح أمامهم السبيل.

2) الخلافة على منهاج النبوة: فالرسالة الخاتمة قد أكدت كمال الرسالة وتمامها، ووحدة الدين وعمومه وشموله، وكمال مصادره وتمامها، وختم النبوة وتوقف الوحي، وأوضحت أنّ البديل الوحيد عن تتابع الرسل وتوالي الأنبياء بعد ذلك هو خلافة على منهاج النبوة تُعبّر حق التعبير عن أهداف النبوة، وتُتابع بإرث النبوة عمليّات بناء الأمّة الوسط المخرجة للناس والمبتعثة إليهم بوسطيّتها وشهودها، لتمكين الخلق من القيام بأمانة الاستخلاف وأداء واجب العمران بعد تحريرهم من عبادة العباد وجور الأديان وضيق الحياة، فموقع هذه الأمّة من الأمم كموقع الخليقة منها.

3) وحدة الأمّة؛ لقد أرسى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– دعائم وحدة الأمّة، وبيّن بمختلف السبل ضرورة هذه الوحدة لتحقيق أهداف الدين ومقاصد النبوة، وضرورة المحافظة على كل مَا من شأنه تدعيمها، وإبعاد كل مَا من شأنه إضعافها. ولأول مرة شهدت الأرض أمّة يرتبط فيها الوجود الفرديّ بالوجود الجماعيّ، بالفكرة الكليّة للفرد وللجماعة والعقيدة المشتركة بينهم، وبالهدف الاستراتيجيّ الموحد للأمّة كلّها، وبالأرض التي تحيا عليها الجماعة وبالنظام الذي يحكمها، مع توحيد خالص يتناول الربوبيّة والإلوهيّة والصفات والنبوة والدين والمصدر والمنطلق والغاية، ويمتد من هذه الحياة الدنيا حتى الدار الآخرة. أمّة أعدها الله تعالى ووضعها على عينه، وأرسى دعائمها رسوله الخاتم –صلى الله عليه وآله وسلّم– لتكون أمّة الأمم، ورائدة الحياة إلى يوم الدين.

4) الشورى والاجتهاد: لتكون «**الخلافة**» خلافة على منهاج النبوة لابد أن تقوم على الشورى، والشورى التي أرسى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– دعائمها، وقام بتنفيذ أمر الله تعالى بها ليست فضلة من فضائل الحاكم المسلم، إن مارسها أثابه الله –تعالى– وحمده الناس وإن حجبها لا تثريب عليه، فهي معلمة غير ملزمة كما روّج لذلك سدنة الاستبداد ومنظرو الطغيان، بل هي –كما هو ظاهر في الممارسة النبويّة– محور الشريعة في ممارسة الحكم، ومحور الشريعة في كل تصرفات القيادة، ليس من حق الحاكم –مهما علت

منزلته، وحسن رأيه، وتنوّعت خبرته- أن يتخذ قرارًا من غير شورى من أهلها، فهي التزام شرعيّ وسياسيّ يتضمنه عقد البيعة لله تعالى بدخول الإسلام، كما عقد البيعة بين الحاكم والمحكوم، وإن لم يُنص عليه في العقد، وقرار الحاكم من غير تشاور لا يكتسب الشرعيّة الضروريّة له، ويتعذر الحفاظ على وحدة أمّة لا تأخذ الشورى منها هذه المكانة، ولا تعتبر – بحالٍ- خلافةً على منهاجِ النبوةِ قيادةٌ تتجاوز الشورى حتى لو طبقت الأحكام وأقامت الحدود، ولذلك كانت الشورى من المعالم الأولى التي أرسى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- ومن المتعسّر، إن لم يكن من المتعذر، أن يجد باحث أيّة ممارسة لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- طيلة العهد -من المكيّ والمدنيّ- تجاوزت واحدًا من مرجعين : الوحي، والشورى، فكل مَا لم يرد به وحي من تصرفات رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- تجده قام به عن شورى. وبهذا نبّه -صلى الله عليه وآله وسلّم- إلى أنّ الشورى وإجماع الأمّة – المعصومة من الإجماع على ضلالة- ستساعد الخلافة والأمّة من بعدها على معالجة كل مَا يجدّ من أمور لم يتعرض الوحي لها بخصوصيّاتها إلى يوم الدين، وبذلك تحافظ الأمّة المخرجة للناس على وسطيّتها وشهودها على الناس.

5) كرامة الإنسان وعصمته وحرمته، بقطع النظر عن النوع أو اللون أو الانتماء العرقيّ أو المكانيّ، وإلغاء كل وسائل التمايز بين البشر، إلّا وسيلة واحدة هي التقوى؛ وهي أمر متاح لكل من أراد منهم إذا وفقه الله تعالى إليه، ومن مقتضيات هذه الكرامة التساوي في الحقوق والواجبات، ومن مستلزماتها التشريع الحق العادل الذي يتساوى الجميع أمامه، والعدل المطلق.

6) تطبيق الشريعة في الداخل: باعتبارها الضمانة الكبرى لتحقيق كرامة الإنسان وتحريره من العبوديّة لغير الله تعالى، وتحقق العدل المطلق بين الخلق، وتمكين الإنسان من الحصول على ضروريّاته وحاجاته وتحسيناته وفق شرع الله -تعالى- «**إن الحكم إلا لله**» ومصادره كتاب الله تعالى وسنّة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وما استند إليهما وقام على أساس منهما أو من أحدهما من الأدلة المعتبرة، وبذلك يتحقق مبدأ من أهم مبادئ العدل وهو استقلال القضاء وحريّة الإفتاء وحَيَدة النظام، وبناؤه على احترام الإنسان وتمكينه من العبوديّة لله تعالى وحده، والعدل المطلق بين الجميع.

7) إعادة تنظيم الزمن فلقد استدار الزمن كهيئته يوم خلق الله –تعالى– الأرض، ونفي النسيء الذي أحدثه تلاعب الإنسان المنحرف في العقيدة والتفكير، الغافل أو المتغافل عن قيمة الوقت وأهميته، وأعيد لعامل الزمان احترامه لتبرز قدرة الخالق –جل شأنه– وحكمتها في توقيتها ومكانها، وتتجلى للإنسان القدرة الإلهيّة في سياقها الزمنيّ، ويعلم الإنسان كيف يتحقق التفاعل بينه وبين الزمان والمكان ومنهج الله تعالى، فتقوم الدورة الحضاريّة المستقيمة، ويظهر الدين القيم ويقضي على مفهوم المصادفة والعبث والخرافة فلا تصل إلى العقل الإنسانيّ فضلا عن أن تستبد به، ويجاب عن سائر الأسئلة الحائرة عن الماضي، وتُرسم صورة المستقبل.

8) الدعوة؛ فإذا كان تطبيق الشريعة يشكّل محور التعامل بين المنتمين لهذه الأمّة في الداخل، فإنّ الدعوة تشكّل محور العلاقات مع الخارج، فالجماعة المسلمة أمّة ودولة تُسخّر كل إمكاناتها لهدفها الأساسيّ وهو الدعوة لحمل رسالة التحرير إلى الناس كافّة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتستخدم سائر الوسائل المشروعة لتحقيق ذلك الهدف، ومنها الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه الدعائم الكبرى، وما بني عليها، شكّلت الدعائم الأساسيّة للبناء الحضاريّ الإسلاميّ الذي انبثق وظهرت آثاره بعد ذلك قريبة أو بعيدة من هذا المثال الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة اكتمل فيها النص وقامت فيها الحجّة، واتسع دور الفكر ليصبح قادرًا (إضافة إلى مَا تقدم) على ممارسة عمليّات تنزيل النص على الواقع وربط الواقع بمقاصد النص الشرعيّ وغاياته وكلّيّاته استقلالا يجعل التجربة نسبيّة وبشريّة محضة تستمد عصمتها لا من سنّة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– لها وحدها كما في المرحلة السابقة؛ بل من إجماع الأمّة إن وُجد، أو تصديق الواقع لصحة وسلامة التجربة. وهذه المرحلة التي تلت وفاة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– يمكن أن نقسمها إلى المراحل التالية ليظهر دور العامل البشريّ بعد أن ألمحنا إلى دور النص.

فالمرحلة الأولى هي: مرحلة الخلافة الراشدة، وهي على منهاج النبوة في ملاحظة الدليل ومناهج فهمه وتنزيله على الواقع وتهيئة الحياة بكل جوانبها لتقبل نتائجه والانفعال

به، لكن مسألة العصمة والثقة بالمشروعيّة تحوّلت إلى إجماع الأمّة بعد أن كانت في النبي –صلى الله عليه وآله وسلّم– وحده، ويسيطر على نشاط الأمّة تلك القواعد التي مثّلت السمات البارزة للعصر النبويّ مفهوم مقدّمتها الدعوة وتوظيف كل الطاقات لخدمتها، وهداية الناس، والأمّة كانت تحمل برنامج هداية وتحرير يمثّل إستراتيجيّتها الكاملة وأهدافها الأساسيّة، ولذلك اعتبرت خلافة على منهاج النبوة. وهذه الفترة هي فترة أبي بكر وعمر والسنة الأولى من خلافة عثمان –رضي الله تعالى عنهم، أمّا مَا تلا تلك المرحلة حتى عام الجماعة فهي مرحلة فتنة واضطراب وتحوّل وانتقال انتهت بعام الجماعة ثم الوصول إلى المرحلة الأمويّة، وهي مرحلة شهدت تحوّلا عن الخلافة إلى نموذج الملك والحكم الوراثيّ فنفضت العروة السياسيّة الأساسيّة من عرى السياسة الشرعيّة.

كما شهدت الفصام بين رجال الفقه والعلم والفكر ورجال السياسيّة الذين اتخذوا من قيادات القبائل ومراكز القوى حاشيةً وأعوانًا دون رجال العلم والفقه، فافترق السلطان والقرآن لأول مرة منذ أن التقيا أول الأمر على يد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– في المدينة المنورة، وتزايد الاعتماد على القبائل وقواتها لمواجهة تحديّات الخارج، وفي ظل ذلك استبد الحاكمون بكثير من الصلاحيّات، وتجاوزوا الشورى وضيّقوا نطاقها، وبرزت بوادر فصل الدين عن الدولة خاصّة بعد استتباب الأمر تمامًا لبني أمية عام الجماعة، وتميزت هذه الفترة بظهور الحاجة المتزايدة إلى الأحكام الفقهيّة لمد القضاء بما يحتاجه في مجالات الفقه المختلفة، حيث حوفظ على استقلال القضاء وحيدته ومصادره إلى حدّ كبير ولم يعترِه مَا اعترى الجانب السياسيّ، وساعد ذلك على جمع وتدوين مَا صار بعد ذلك نواة للعلوم الإسلاميّة. وشهدت هذه الفترة تكّون بعض الفرق الإسلاميّة الكبرى وشيوعها، وتفرقها حول مقولات فكريّة متنوّعة أفرزتها أحداث المرحلة، ترجع في معظمها إلى قضايا الإمامة وما حدث من فتن داخليّة ومعارك أهليّة، وتميزت كذلك بتمدّد رقعة الدولة واتساعها نتيجة الجهاد المستمر والفتوحات التي صارت امتدادًا للفتوحات النبويّة والراشديّة التي استوعبت حوض الحضارات والأديان السماويّة السابقة كلّها.

فجاءت فتوحات هذه الفترة لتضيف إلى العمق الإسلاميّ مجالات حضاريّة تفوق أيّة قدرة ذاتيّة أو حسابات بشريّة –لحملة رسالة الإسلام الأولين من العرب ومَنْ انضم إلى

الإسلام معهم- على الاستيعاب في تلك المرحلة، ثم بدأت عوامل الضعف والوهن تتعاور ذلك البديل الحضاريّ الجديد الذي صنعته القدرة الإلهيّة -بعد أن أصيب بنوع من الفصام مع مقومات بنائه وقوتها الإسلاميّة- نتيجة تشويش الرؤية واختلال منظومة المنهجيّة القرآنيّة أمام العقل المسلم بتلك التأويلات.